التفسير بمعهود استعمال القرآن الكريم عند ابن عاشور

د.مفتاح علي محسن
أستاذ مساعد في تفسير القرآن وعلومه - كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية – الجامعة الأسمرية

المقدمة :

إن اعتبار الأحوال والقرائن التي رافقت الخطاب واكتنفته وسيلة لا غنى عنها لفهم مراد خطاب المتكلم ، خاصة عند تعدد وجوه حمل الخطاب على المعاني التي يتسع لها، وهي أداة للترجيح فالقطع بالمعنى المراد، وتعيينه من بين المحتملات، وبالمقابل فإن إغفال اصطلاحات وعادات المتكلم وتصوراته ، يجر إلى معنى دخيل على غرض المتكلم، وفهم مجانب لهدفه ، فغاية منحرفة عن مقصده، فاستنباط مفارق لمراده من الخطاب وشطط عنه ، فكان للإحاطة بمعهود استعمال المتكلم ألفاظا وتراكيبا أثر بالغ وأهمية كبيرة ، حتى صار المعنى المتبادر والمراد المستنبط يتوقفان عليه ، فاختبأت الغاية خلفه، واستترت الإشارة وراءه، وإن المطالع لكلام العرب، والمدقق في فصاحتهم وضروبها، والمتذوق لبيانهم ومناحيه ، ليقف عاجزا متحيرا في فهم معاني كلامهم، ومغزى أساليبهم، وأغراض نظمهم ، حتى يسافر بفكره وقلبه إلى الزمان والمكان الذي قيلت فيه ، فيرسم في خياله شخصية قائلها، والوسط الذي تبلورت فيه ثقافته ، حتى يستطيع الكشف عن المعاني ويستنبط الأغراض، ويتمكن من الغوص لسبر المقاصد فالوصول إلى المراد.

ولقد نزل القرآن الكريم على معهود لسان العرب في ألفاظها المتعددة المعاني، وأساليبها المتنوعة البيان، بين الإيجاز والتفصيل ،والتصريح والتلويح، ومناحيها وضروبها المتعددة الأغراض والمقاصد، والمتنوعة الغايات والأهداف، على أعلى درجات الفصاحة، ومنتهى مقامات البلاغة ، فكان مجمع البيان وغاية الإعجاز، ولا يمكن فهم القرآن الكريم على مراده–سبحانه وتعالى-وإدراك أغراضه واستنباط مقاصده والوقوف على غاياته ، إلا باستقراء معهوده–سبحانه وتعالى- فيه، إذ المتكلم أعلم بمعاني كلامه، ومعهود مبينه-صلى الله عليه وسلم- ، إذ هو المفوض بالبيان، ومعهود لسان من نزل فيهم، وفهم مناحيهم في الوصف والتعبير، وضروبهم في الدلالة والبيان، ذلك أنه كان خطابا لهم، وإن فاق طوقهم في البيان، وعجزوا عن تحديه، لكنهم فهموه ، فلم ينكروه، قال الشافعي-رحمه الله-:"فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها ، اتساع لسانها" [(1)]،وقال الشاطبي-رحمه الله-:"لا بد في هم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر؛ فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف ، فلا يصح أن يجرى في فهمها على ما لا تعرفه"[(2)]،ولو لم يرد وفق معهودهم ، لما فهموه ، ولكان عبثا وتكليفا بما لا يطاق، تعالى الله على ذلك علوا كبيرا، ولأنه–صلى الله عليه وسلم-المكلف من ربه ببيان القرآن ، آتاه القرآن ومثله معه ، حتى كان لسانه جامعا للبيان، وخلقه تفسيرا للفرقان ، لا ينطق إلا وحيا، ولا يفعل إلا حكمة ، فكان لمعهود كلامه في تفسير النصوص الكريمة صون من الزلل، وعصمة من التحريف ، وحفظ ووقاية من التقول على الله، والخروج عن المعنى المراد، والغرض المقصود إلى تأويلات دخيلة بعيدة فمنحرفة، وغايات مجانبة مبتدعة ففاسدة ، ذلك أنه–صلى الله عليه وسلم-كثيرا ما نبه وبين إلى أن المراد بالنص غير المتبادر إلى فهم الصحابة- رضوان الله عليهم- ، وهم أهل الفصاحة والبيان والتلقي، قال ابن تيمية-رحمه الله-:"ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث ، إذا عرف تفسير ما أريد بها من جهة النبي–صلى الله عليه وسلم- ، م يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم"[(3)]كمعنى الصلاة والزكاة والحج

(1) الرسالة ص 173.
(2) الموافقات ج2/ص82.
(3) مجموع الفتاوى ج7/ص 286.

وغيرها من الألفاظ والتراكيب التي بين–صلى الله عليه وسلم-أن معناها غير ما تعارف عليه واعتاده العرب.

لقد أحدث القرآن الكريم في نفوس متلقيه زمن التنزيل أثرا كبيرا في نفوسهم، وتغييرا كبيرا في سلوكهم ، إذ تلقفهم من الجاهلية ، فأوصلهم إلى أسمى مراتب الإنسانية، وانتزعهم من التبعية ، ليجلسهم على قمة عرش الحضارة البشرية ، فصاروا أئمة الهداية وقادة الإصلاح، ومشاعل الحضارة ورواد النجاح، وما كان ذلك ليكون ، إلا لأنهم أخذوا به خلقا، وساروا به منهجا، واعتصموا به ملجأً، واحتموا به ملاذاً ، ولا يمكن أن يحدث النص الكريم تأثيرا في نفوس سامعيه ، فيغير من سلوكهم ، كذاك التغيير الذي أحدثه في سلوك أولئك الدين كانوا حول النبي-صلى الله عليه وسلم-في فجر الدعوة ومن تبعهم ونهج نهجهم ، إلا إذا فسر ففهم ثم طبق على نهج مبلغه عن رب العالمين-صلى الله عليه وسلم- المفسر الأول والمعلم الأكبر، والمبين المعصوم ، ذاك الذي كان خلقه القرآن ، وأقسم به منزل الفرقان، وليس المقصود ببيانه–صلى الله عليه وسلم-مما روي عنه وورد مورد التفسير وكان قطعا بالمراد ، كتفسيره–صلى الله عليه وسلم-الظلم في قوله-تعالى-: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)(1) ، بالشرك ، استنادا إلى قوله:(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[2] فهذا ومثيله لا يصار إلى غيره[3]،ونبذه نبذ للدين،وإنما يتجاوزه ، فيشمل ما كان قوله-صلى الله عليه وسلم-في معنى الآية،فيكون مرجحا لما وافقه على غيره،ولا ريب أن إغفاله والافتقار إلى معرفته،والإحاطة به ، يجر إلى الزلل،ويوقع في الانحراف عن المعنى والمراد،والوقوع في الخطأ والتقول على الله-عزوجل- ، ومن الأمثلة على آثار إغفاله،والافتقار إليه ما ذكره المفسرون في تفسير قوله–تعالى-:(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ)[4] ، فجمهور المفسرين[5]على أن المستوقد هو المنافق،وأن النور هو ما يجده من لقاء وصحبة أهل الإيمان،وذهابه انفراده بأهل النفاق،وعوده على أهل الكفر،يقول الدكتور صلاح خليل عبد العال:"وقد أخفق المفسرون في نقل معهود كلام العرب،والمعاني التأثيرية المرتبطة به في هذا التمثيل"[6]منبها إلى أن تشبيه المنافق بموقد النار،والقول بأن:(الذي)بمعنى: (الذين) غير صحيح،وهو يخالف السياق ومعهود العرب في معنى وغاية استيقاد النار ليلا في الصحراء ، إذ هي للدلالة والضيافة والقرى،وهو ما دل عليه قوله–تعالى-في قصة سفر موسى-عليه السلام-:(إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)[7]،منبها إلى أنه يخالف بيانه–صلى الله عليه وسلم-للتمثيل في في قوله:"إنما مثلي ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد نارا،فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها،فجعل ينزعهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها،فأنا آخذ بحجزكم عن النار،وهم يقتحمون فيها"[8]،والمتأمل في هذه الآية والتمثيل الوارد فيها ومعهود بيان المصطفى-صلى الله عليه وسلم- ، ليرى أن بيانه جاء جامعا لما جاء في السياق من الحديث عن الكفار الصرحاء في قوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[9]والمنافقين في قوله-

(1) سورة الأنعام،الآية: 82

(2) سورة لقمان،الآية: 13

(3) روى البخاري في صحيحه-كتاب أحاديث الأنبياء-باب قول الله-تعالى-:﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر﴾-حديث:3262،عن عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-:"لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على المسلمين؛فقالوا:يا رسول الله،أينا لا يظلم نفسه؟قال:"ليس ذلك إنما هو الشرك؛ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه:﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ ".

(4) سورة البقرة،الآية: 17

(5) انظر:جامع البيان للطبري ج1/ص319-321، الكشاف للزمخشري ج1/ص191،البحر المحيط لأبي حيان ج 1/125،122-126- ،تفسير القرآن الحكيم "المنار" لمحمد رشيدج1/ص167،التحرير والتنوير لابن عاشور،تفسير التحرير والتنوير،ج 1/ص307

(6) مجلة الوعي الإسلامي:مجلة كويتية تصدر عن وزارة الأوقاف،العدد 576/ص34.

(7) سورة طه،الآية: 10

(8) رواه البخاري في صحيحه-كتاب الرقاق-باب الانتهاء عن المعاصي- حديث:.6128

(9) سورة البقرة ،الآية:6

تعالى-:(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ)[1] وهو أوسع من قصره على المنافقين ، وليرى فيها تآلف وتظافر معهود العرب،ومعهود بيانه–صلى الله عليه وسلم- ومعهود القرآن الكريم في بيان التمثيل ومعناه وكشف مراده،وأن في إغفال أحدها انحراف،وشطط عن المقصد والغاية.

وإذا بحثنا في التفاسير فاستقرينا إطلاق لفظ:(معهود الاستعمال) فيها ، ثم دققنا النظر في تنوع هذه الإطلاقات ، لوجدنا أن التفسير بمعهود الاستعمال على ثلاثة أنواع:"

(1) الأول:معهود استعمال القرآن :وهو معهود داخلي ، يستخرج ويستنبط من استقراء نصوص القرآن الكريم.

(2) الثاني:المعهود من بيانه–صلى الله عليه وسلم-ويعتمد على استقراء السنة النبوية المطهرة،ومنها يستنبط.

(3) والثالث:المعهود من كلام العرب واستعمالهم:ويستقرى من عادات وأحوال وفهم أهل التلقي زمن النزول.

فالأول يستقرى من نصوص القرآن الكريم،والأخيران يستقرءان ويستنبطان من خارج نصوص القرآن الكريم ، وإن كان معهود بيانه–صلى الله عليه وسلم-يستقرى كتب السنة والسيرة ، إلا أنه وحي يوحى،ومنهل استقراءه مضبوط صحيح،أما معهود كلام العرب واستعمالهم فمصادره دوواين شعر العرب وأيامهم وخطبهم ومعاجمهم ، ولو رتبناها مقاما وصحة وأثرا في تفسير النص وفهم مراده على منهج ابن تيمية-رحمه الله- في مقدمته في أصول التفسير ، لوجدنا أن أكرمها وأعلاها:معهود استعمال القرآن الكريم ، ذلك أنه من جنسه،وأن المتكلم هو الأعلم بمعاني كلامه،ثم ما شهد القرآن الكريم بأنه بيانه وأحال عليه ، أشرف كلام الخلق وأحكمه المعهود من بيانه–صلى الله عليه وسلم-إذ هو المكلف بالبيان من منزل الفرقان ، وهذا في غير الصحيح الوارد مورد التفسير ، فإنه مقدم على الأول إذ هو من الاجتهاد ، ولا اجتهاد مع بيان المصطفى-عليه الصلاة والسلام-،ثم معهود استعمال أهل التلقي ، الذين نزل القرآن بلغتهم،ووفق مناحيهم ،وعلى فهمهم،ولا يمكن أن يكون لفهم معاني النصوص الكريمة،وإدراك مقاصدها أثر في نفوس سامعيها،وتغيير في سلوكهم إذا طبقوها،أو حتى تأثيرات مساوية،أو مقاربة لذلك الأثر والتغيير الذي أحدثه في نفوس وسلوك متلقيه زمن نزوله من الصحابة– رضوان الله عليهم-إلا باعتبار هذه المعهودات الثلاث وقرائنها التي اكتنفتها.

وهذا لا يعني قصر فهم معاني النصوص الكريمة،وحصر غاياتها ومقاصدها،وتضييقها في عهد التلقي وزمن النزول،إذ هي صالحة لكل عصر ومصر ، وإنما اعتبار طريقتهم الخاصة،ومنهجهم المتفرد مرجعا وضابطا ومعيارا ومرجحا ، ذلك أنه–سبحانه وتعالى-أحال البيان على مبلغه-صلى الله عليه وسلم-وأثنى على صحبه-رضوان الله عليهم- وتمدحهم في نصوص كثيرة،وأرشد إلى الاتساء،والاعتبار بأحوالهم وأعمالهم قال–تعالى-:(وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ)[2]،وقال–تعالى-:(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)[3]وقال–تعالى-:(مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)[4]، وقال–تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[5] ، وهذا يثبت أنهم فهموه وعملوا به كما أراد-سبحانه وتعالى-،فلا يصار إلى ما يخالفه ، لأن الإعراض عنه يفضي إلى إغفال هذه النصوص ونظائرها

(1) سورة البقرة ،الآية: 8

(2) سورة التوبة،الآية:100

(3) سورة الفتح،الآية: 18

(4) سورة الفتح،الآية: 29

(5) سورة الفتح،الآية: 10

وردها والعياذ بالله،وهذا لا يعني شطب المعهود المعاصر ، فالقرآن الكريم معجزة خالدة باقية،لا تنقضي عجائبه ، صالح لكل الأزمان والبلدان،إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،فألفاظه وتراكيبه وأساليبه صالحة للتأثير في نفوس متلقيه على اختلاف الأعصر،وتنوع الأمصار،ومقاصده وغاياته وأهدافه صالحة لتغيير سلوكيات الأفراد فإصلاح حياة المجتمعات ، وإنما المنهج والمقصد:التوفيق بين المعهود حال التنزيل،والمعهود المعاصر ، باعتبار الأول أساسا ، والثاني توسعا للأول،وتبعا له.

ولأن أصح الطرق في التفسير:تفسير القرآن بالقرآن ، اخترت فقدمت البحث في التفسير بمعهود استعمال القرآن الكريم ، داعيا العليم الحكيم–سبحانه وتعالى-أن يوفقني ويفتح علي فيه،وأن ييسر لي لاحقا البحث في معهود بيان المصطفى–صلى الله عليه وسلم-ومعهود أهل التلقي ، إنه سميع قريب مجيب.

وقبل البحث في استنباط معهود استعمال القرآن الكريم،وتوظيفه في كشف المعنى والوقوف على المقصد ، لزم أن نعرفه ونؤصله ونبين أهميته.

- **تعريفه:** المعهود في أصل اللغة من عهد ، إذا عرف ، فهو المعروف والمألوف والشائع[1]،وفي الاصطلاح :هو ما كرره القرآن على طريقة واحدة،أو أغلبية بدلالة خاصة[2]،فيشمل المعهود جميع المعاني والأساليب والأعراف والقواعد والخصائص والسمات،ويرادفه في إطلاق المفسرين :العرف والغالب والعادة والمطرد والاصطلاح، وقد سماه الكفوي كليات القرآن[3] ،وسماه غيره العرف الشرعي ولغة القرآن وأسلوبه،ومنه مبتكرات القرآن ، فأي هذه الإطلاقات ينطبق على لفظ معهود استعمال القرآن؟.

يتطابق لفظ المعهود مع الغالب والشائع والمألوف والعرف الشرعي والاصطلاح ، إلا أنه لا يدخل فيه جميع أفرادها،أما العرف والعادة فمن العلماء من جعلهما بمعنى واحد،ومنهم من فرق فجعل العادة في الفرد،والعرف في المجموع،وجعل أبو هلال العسكري العرف في الألفاظ والعادة في الأفعال[4]،ولعله في الأسلوب يكون عادة،وفي اللفظ والتراكيب عرفا أو اصطلاحا،أما لفظ الكليات فللعلماء فيه إطلاقات:

(1) القواعد العامة المتعلقة بالتشريعات العامة.

(2) أو النصوص الشرعية المصدرة بـــ(كل).

(3) كليات علوم القرآن الكريم.

(4) أو كليات في تفسير معاني الألفاظ وأساليبها،كقول ابن عباس-رضي الله عنهما-:"كل شيء في القرآن رجز ، فهو عذاب"[5].

وبالنظر في العلاقة بين المعهود وهذه الإطلاقات الأربعة ، فإن علاقته بالأول والثاني والثالث هي في الاستعمال اللغوي البحث،وهي غير داخلة فيه،وجعلها بعضهم أعم منه،أما الرابع فهو مطابق للمعهود،وأما مبتكرات القرآن التي علا بها في ألفاظه وأساليبه،وتميز بها نظمه على كلامهم ، وفق ما ألفوه فلم ينكروه ، ففاق طوقهم ، فلا تكون من المعهود ، إلا إذا تكررت،وأما الأسلوب فهو أخص من المعهود ، بل هو قسم منه.

(1) لسان العرب لابن منظور مادة: (ع هـ د) ص3149،مادة: (أ ل ف)108، مادة:(ش ي ع) ص2378

(2) عادات القرآن الأسلوبية لراشد بن حمود الثنيان ص 29.

(3) الكليات هو معجم ألفه أبو البقاء الكفوي ت:1094هـ في المصطلحات والفروق اللغوية.

(4) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص345.

(5) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 730/1.

- تأصيل المصطلح: إن تتبع إشارات علماء الأمة لمعهود استعمال القرآن الكريم في آراءهم وأقوالهم ومؤلفاتهم،وطريقة استنباطه عندهم،وتوظيفهم إياه في كشف المعنى وفهم المراد ، ليظهر بجلاء أنه ارتبط بالتفسير ارتباطا وثيقا،وأنه نشأ مع نزول القرآن الكريم ، ولقد بين–صلى الله عليه وسلم-أن كثيرا من الألفاظ والتركيب والأساليب التي جاء بها القرآن معناها ومرادها على غير المتبادر من لغة العرب ، كلفظ:الصلاة والزكاة والحج والصوم ، فهذه الألفاظ لها معان غير ما استقر عندهم في أصل لسانهم،ولذلك كان من طرقه الحكيمة،ومهارة أساليبه-صلى الله عليه وسلم- في تعليم الصحابة – رضوان الله عليهم- أن يسألهم:أتدرون من أو ما كذا ... ، فيجيب الصحابة–رضوان الله عليهم-بما عهدوه في لسانهم ، فيصحح فهمهم ،ويرشدهم إلى معانيها الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم،ويبين لهم مقاصدها التي أرادها –سبحانه وتعالى-[1]،ولهذا كان معهود القرآن عندهم منهج قويم وطريق سليم إلى فهم كثير من النصوص الكريمة التي مرادها غير المتبادر الظاهر منها ، والتي لم يرد فيها نص عن المبين-صلى الله عليه وسلم- ، فاعتنى به علماء الأمة سلفا وخلفا،متقدمين ومتأخرين عناية بالغة،وأولوه اهتماما شديدا ، قال ابن عباس-رضي الله عنهما- في تفسير قوله–تعالى-:(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ)[2]:"وكل شيء:أكاد وكادوا وكاد ولو ، فإنه لا يكون أبدا"[3]،وقال في تفسير قوله –تعالى-:(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ)[4]:"وكل عسى في القرآن واجبة"[5]،وتابعهم في الاهتمام به من بعدهم من التابعين وتابعيهم ، لما له من أثر في كشف المعنى،وأهمية في فهم المراد ، قال الضحاك:"وكل كأس في القرآن ، فهو الخمر"[6]،وقال ابن عيينة:"ما سمى الله مطرا في القرآن ، إلا عذابا"[7]، وقال الراغب الراغب :"القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء ، ولذلك قال:(لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ)[8].....وفي عامة القرآن أريد الرجال والنساء جميعا"[9]فهده الأقوال المنقولة عن سلف الأمةً وعلمائها ، تكشف أن معهود القرآن لم يكن خافيا عليهم،وتدلل على عنايتهم بعادات القرآن وتدقيقهم في معهودات استعمالاته ، وأنهم وإن لم يدخلوها تحت مصطلح محدد ، لكنهم ذكروها،ونبهوا إليها في أقوالهم ومصنفاتهم،حتى جاء الزمخشري في القرن السادس،ونص على إطلاق مصطلح "عادة"عليها ، فقال:"من عاداته-عزوجل- في كتابه ، أن يذكر الترغيب مع الترهيب ، ويشفع البشارة بالنذارة"[10]،وتبعه الفخر الرازي ثم البيضاوي وابن تيمية والزركشي وابن حجر،قال ابن القيم:"والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله-:(وَمَا أَدْرَاكَ)[11]في الأمور الغائبة العظيمة"[12]،وقال

(1) ومنه ما رواه مسلم في صحيحه–كتاب البر والصلة والآداب–باب تحريم الظلم – حديث:4784،عن أبي هريرة–رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال:" أتدرون ما المفلس ؟قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع،فقال:" إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة،وصيام،وزكاة،ويأتي قد شتم هذا،وقذف هذا،وأكل مال هذا،وسفك دم هذا،وضرب هذا،فيعطى هذا من حسناته،وهذا من حسناته،فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه،ثم طرح في النار " وهدا المعنى للإفلاس يتفق مع معني الخسران الذي ورد في مواضع كثيرة القرآن الكريم والمقابل للربح.

(2) سورة البقرة ،الآية: 71

(3)تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ج1/ص143

(4) سورة التوبة ،الآية: 18

(5) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ج6/ص1766

(6) جامع البيان لابن جرير الطبري ج19/ص531

(7) روى البخاري في صحيحه–كتاب تفسير القرآن–سورة البقرة–باب قوله:﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ سورة الأنفال،الآية:32 أن ابن عيينة قال:"ما سمى الله تعالى مطرا في القرآن؛إلا عذابا ،وتسميه العرب الغيث "،وهو قوله–تعالى–:﴿ ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾سورة الزمر،الآية:53

(8)سورة الحجرات،الآية: 11

(9) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ج418.

(10) الكشاف للزمخشري ج1/ص225.

(11) سورة الحاقة ،الآية: 3

(12) التبيان في أقسام القرآن ج1/ص24.

السيوطي في تفسير قوله-تعالى-:(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ)[1]:"جرى على عادة القرآن في الخطاب بلا مفهوم له"[2].

-أهمية معرفة المعهود في استعمال القرآن الكريم:

إن الإحاطة بمعاني الكلام وإدراك غاياته ، تتوقف على فهم مراد المتكلم من انتقاء الألفاظ،وسبك تراكيبها،واختيار الأساليب،وصوغ أغراضها،ولايمكن إدراك معاني كلامه،وفهم مبتغاه خاصة عند الاحتمال ، إلا باستقراء نظائر تلك الاحتمالات،وملاحظة الغالب والمطرد فيها،وميز الشاد والخارج عنها،ولقد حوى القرآن الكريم ثروة عظيمة معجزة في أفانين الكلام،تمثلت في ثراء التنوع في استعمال الألفاظ،وتباين تراكيبها،وتنوع الأساليب،وتعدد أغراضها ، حتى أفحمت فحول الفصاحة والبيان في أوج قوتها،وعزة فخرها،وقمة زهوها،ومنتهى نبوغها ، فعجزوا عن مجاراته حتى في وجه واحد وحيد من وجوهها المتعددة المتنوعة ، ولو في سورة واحدة من ثلاث آيات،أو في ثلاث جمل ، قد لا تجاوز سطرا،حتى ألجأهم عجزهم وقصر طوقهم إلى الاعتراف بعلوه،وقد سجل القرآن الكريم اعترافهم بعلوه وعجزهم في قوله-تعالى-:(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَر)[3]،ولا مراء في أن هذه الثروة العظيمة المتنوعة الألفاظ والتراكيب والأساليب حبلى بثمار أعظم من المقاصد والغايات والأهداف ، وأن الوصول إليها،وقطف ثمارها،وتوظيف فوائدها ، يعتمد على فهم مراده–سبحانه وتعالى-منها ، وذلك بتتبع نظائرها،وتأمل المعتاد والغالب منها،والبحث في مواضع اتفاقه،وتعيين ما خرج عنه،والوقوف على محل التنوع والافتراق ، ولهذا كان في استقراء تلك المعهودات والعادات ، فوائد جمة تعين الباحث في كشف المعاني،واستيعاب تنوعها،والوقوف على الغايات والمقاصد،ومن هذه الفوائد:

(1) فهم المعهود من استعمال القرآن الكريم ، امتثال لأمره–سبحانه وتعالى-في تدبر كتابه،وطريق للعمل به على مراده–عز وجل-،والدعوة إلى دينه على نهج النبوة القويم،ويترتب على إغفاله أونبذه ، قصور في الفهم يفضي إلى الانحراف عن الحق،فالزلل عن المراد فالانزلاق في الخطأ فالتقول عليه-عزوجل- فالضلال عن الجادة.

(2) هو أساس من أسس النهج القويم والطريق السليم في تفسير كتابه-سبحانه وتعالى-على مراده،وإدراك غاياته،به يتضح المشكل،ويفسر المبهم،ويبين المجمل،ويقطع الاحتمال.

(3) مرجع في تعيين المعنى عند الاختلاف ، ذلك أنه دليل استقرائي لا يخرج عن معنى الآية غالبا ، قال ابن تيمية-رحمه الله-:"فإن اختلفوا ، فلا يكون قول بعضم حجة على بعض،ولا على من بعدهم،ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن،أو السنة،أو عموم اللغة،أو أقوال الصحابة..."[4].

(4) ضابط للتفسير اللغوي ، يقيده بقبول السياق،ومراعاة غرض المتكلم–سبحانه وتعالى- ، قال ابن تيمية:"فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة"[5]،وقال ابن القيم:"وينبغي أن أن يفطن هنا لأمر لابد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله–عزوجل-ويفسر لمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله الكلام"[6].

(5) عاصم من الخطأ والانحراف والتقول على الله–عزوجل-بلا علم،وبه يكون الاحتراز عن الجهل بما تقتضيه الألفاظ والأساليب من عرف قرآني أو عادة ، قال ابن تيمية:"فإن عامة

(1) سورة النساء،الآية: 102

(2) تفسير الجلالين ص119

(3) سورة المدثر،الآية: 24

(4) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص105.

(5)مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية – ج23/2.

(6) بدائع الفوائد لابن القيم ج169/4.

ضلال أهل البدع كانت بهذا السبب ، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك"[1].

(6) أساس محوري في التفسير الموضوعي ، ذلك أن التفسير الموضوعي يعتمد ويرتكز علي استقراء ما يدخل تحت موضوع واحد ، ثم المقارنة فالربط بينها ، لاستنباط الوحدة الموضوعية،وإدراك الغاية ، وهذا لا يحصل إلا بكشف الاشتراك بينها،وإدراك المعهود في تكررها.

(7) لاغنى عنه في إدراك المقاصد العامة والغايات الكلية ، ذلك أن المقاصد والغايات هي تلك المعاني والقيم والمبادئ التي تجتمع وتلتف وتتآزر حولها النصوص الكريمة لإثباتها ، وإبراز هذا التآزر والتآلف لا يكون إلا بإدراك الاتفاق بينها،والتباين فيها،والمتقدم والمتأخر منها،والعام والخاص،وكل ذلك لايكون إلا بالتدبر في النظائر،وتكررها،وإدراك الجامع بينها.

(8) استبعاد الدخيل عن معنى النص الكريم،ورد البعيد عن غرض المتكلم–سبحانه وتعالى- ومقصده،وبيان انحرافه،وشططه ، فتعقب رواياته وآراء أهله،وبيان وهنها،فإبطالها.

(9) ضابط في الترجيح بين أقوال المفسرين ، ذلك أن حمل معنى اللفظ،ومقصود التركيب،وغاية الأسلوب على المطرد والغالب ، هو الفهم الصحيح،والمعنى المراد ما لم تقم قرينة على تخصيصه.

(10) طريق إلى كشف وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، فبه يوقف على اللطائف،والفوائد القرآنية ، في ثراء استعمالات اللفظ،وبديع تعدد التراكيب،وروائع تنوع الأساليب.

(11) كاشف للمناسبات بين السور والسياقات والآيات ، عبر تأمل وتدبر اشتراكها وارتباطها وتكاملها في الأغراض والغايات التي هي من عرفه ومعهوداته.

– كيفية استنباط معهود استعمال القرآن الكريم:

يقوم منهج استخراج معهود استعمال القرآن الكريم على الأسس الآتية:

(1) **الاستقراء:**وذلك بتدبر اللفظ والتركيب والأسلوب في مواطن وروده المتكررة،وجمع هذه النظائر،وملاحظة اشتراكها وتباينها،واطرادها أو أغلبيتها.

(2) **البحث:**في السياقات التي ورد فيها المكرر ، بتأمل السباق واللحاق والغرض والغاية ، ذلك أنه الدال عن توسع اللفظ في المعاني والدلالات،والمرشد إلى تنوع الأساليب في المناحي والغايات ، وهو الكاشف عن التباين والاختلاف والتضاد،والقاطع بترجيح المحتمل ، يقول ابن القيم:"السياق يرشد إلى تبيين المجمل،وتعيين المحتمل،والقطع بعدم احتمال غير المراد،وتخصيص العام،وتقييد المطلق،وتنوع الدلالة"[2].

(3) البحث:في تواريخ نزول المكرر،وترتيبه التوقيفي،والوقوف على المتقدم والمتأخر منه،ذلك أن معهود الاستعمال في المكي يختلف عنه في المدني ، فالمكي قد يكون عاما يدخل فيه من أعرض عن الخطاب من أهل الشرك،والمدني قد يكون خاصا بالذين تلقوه بالقبول والاستجابة،والمتقدم من المدني في صدر الدعوة قبل التمكين ، يختلف عما جاء بعد النصرة والتمكين.

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج116/7

(2) بدائع الفوائد لابن القيم ج2/ص10

(4) **اعتبار :**حال من تلقوا النص الكريم وقت نزوله ، ذلك أنهم خوطبوا بما يشمل إدراكهم،ويندرج فيه فهمهم ، إذلم يخاطبوا بما لا مثال له عندهم،ولابطلسمات وأحاجي وألغاز ، وإنما خوطبوا على نهج أسلوبهم في الفصاحة،ومثال مناحيهم في البيان ، فلم ينكروه ، وإن كان فوق طوقهم،ومسجلا عجزهم عن الإتيان بمثله.

(5) **الإحاطة:**بمعهود مبين الخطاب–صلى الله عليه وسلم-ومعهود فهم متلقي الخطاب وقت نزوله ، على تنوعهم بين مستجيب ومعرض:العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى على العموم، والصحابة-رضوان الله عليهم-على الخصوص،وملاحظة العرف المستمر والعرف الخاص في لغتهم،واعتبار الأولى في احتمال ما يفيده اللفظ والتركيب والأسلوب،ولا يعدل عنه إلا إذا تعدر حمله عليه.

(6) **مراعاة:**أن النص الكريم معجزة خالدة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يسع المعاني في كل العصور والأمصار،منضبط بوقت ومكان التنزيل ، لا مقيد بهما.

(7) **التمييز والفرز:**بين العرف القرآني وعادته،ومطرده،وأغلبه،واصطلاحه،ومبتكراته،فخروج المكرر مرة أومرتين ، يختلف عن خروجه في الأكثري ، الذي يكون فيه المستثنى أكثر من الأغلبي ، على أن الضابط فيه ليس باعتبار عدد مرات الخروج ، وإنما اعتبار النسبة بين المستثنى والمستثنى منه.

-معهود استعمال القرآن الكريم عند ابن عاشور:

اعتنى ابن عاشور-رحمه الله-بمعهود استعمال القرآن عناية بالغة،وأولاه اهتماما كبيرا ، حتى جاوزت المواضع التي ذكره فيها في تفسيره التحرير والتنوير المئتين والثلاثين موضعا ، لما لمسه في توظيفه من الأثر البالغ في كشف المعنى،وفهم المراد،وجعله من الأهمية بمكان ، حتى فصل الحديث عنه في مقدمة تفسيره،ففي المقدمة العاشرة من تفسيره التي وسمها بـــــ(في إعجاز القرآن)،وعند حديثه عن الإعجاز في أسلوب القرآن ، عقد فصلين:الأول في الحديث عن مبتكرات القرآن،والثاني في عادات القرآن ، منبها إلى أن المبتكرات جاءت على غير طرائق الكلام القديمة في الشعر والخطابة،ميزت نظم القرآن عن كلام العرب بطريقةمبتكرة،لم يعهدوها ، لكنهم ألفوها فلم ينكروها:كتخصيص العموم،وتقييدالمطلق،والتقسيم،والتسوير،والقصص،والتمثيل،والإيجاز،والحذف،والتضمين،والاتساع في استعمال اللفظ،والتصرف في حكاية قول غير لغة العرب على ما يقتضيه الإعجاز ، دون إخلال بالمعنى أو المقام،منبها إلى أنها مطردة فيه،وهذا الاطراد هو ما ميز القرآن عن كلام العرب[1]،وفي الفصل الثاني:"عادات القرآن"والذي كان حقه التقديم على المبتكرات ، ذلك أنها فرع عنها ، نبه إلى أهمية الإحاطة بهذا الفن،وضرورة أن يعرفه المفسر،ومؤصلا له ومستدلا بما روي عن سلف الأمة من الصحابة والتابعين-رضوان الله عليهم-وعلماء الأمة في التفسير،مبينا أنه بدل جهدا كبيرا في استقراء عادات القرآن الكريم،ومشيرا إلى أنه سيفصل الحديث عنها في مواضعها[2] ، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يطلق عليها أحيانا عادة،وأحيانا أخرى اصطلاح أو مطرد ، ولعله راعى في إطلاقه مدى انطباق اللفظ على أفراده،والنسبة بين المستثنى والمستثنى منه ، فالمطرد ما لا خروج لأفراده عنه ، ثم يليه الاصطلاح ، ثم العادة ، على أن المتتبع لإطلاقاته يرى أن الاصطلاح عنده يكون في استعمال اللفظ،والعادة تكون في استعمال الأسلوب

– منهج ابن عاشور في التفسير بمعهود استعمال القرآن الكريم:

يقوم منهج ابن عاشور في التفسير بمعهود القرآن الكريم على أسس ثلاث:الأساس الأول:الاستقراء،الأساس الثاني: التصنيف،فالأساس الثالث:التوظيف.

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص120.

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص124.

(1) الاستقراء:ويقوم هذا الأساس على البحث عن مواضع المعهود في استعمال القرآن الكريم،واستقصاء نظائرها سواء كانت في اللفظ أو الأسلوب،وهو في استقراءه لها يشير إلى اطرادها أو أغلبيتها،وينبه إلى مواطن الاستثناء والخروج عن الانطباق فيها:إجمالا أو تفصيلا،فيكتفي إجمالا بأن يقول :"غالب اصطلاح القرآن"[1] ، لكنه لا يستخدم هذا التعبير في العادة فلا يقول:غالب عادة القرآن ، وهذا يدل على تحريه الدقة في استخدام الألفاظ في التعبير ، فالاصطلاح عنده يلي العادة في الرتبة من حيث انطباق اللفظ على أفراده،والنسبة بين المستثنى والمستثنى منه،أما الاطراد فلا استثناء فيه،وهو الرتبة الأولى عنده ، وإن كان الاصطلاح عنده في اللفظ،والعادة في الأسلوب،أما تفصيلا :فإنه ينص على مواضع الخروج والاستثناء،فمن الاستثناءات من عادات القرآن التي أشار إليها:ما ذكره عند تفسيره لقوله-تعالى-:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)[2]حيث نبه إلى أن العرب تعرف أن "آزر" هو أبو إبراهيم –عليه السلام-،مبينا أنه ليس من عادة القرآن التعرض بالذكر لغير أسماء الأنبياء-عليهم السلام- ، مرجحا أن يكون منادى ويؤيد هذا الوجه قراءة يعقوب (آزرُ) بضم الراء،وقراءة ابن عباس (أَزر) بهمزتين مفتوحة فمكسورة،وروي عنه بفتح الاثنتين[3]،وعلى هذه القراءات يكون اللفظ حكاية لخطاب إبراهيم لأبيه بأسلوب غلظة وتوبيخ[4].

وفي تفسير قوله–تعالى-:(وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)[5]نبه ابن عاشور-رحمه الله-إلى أن قوله:(مِّن قَبْلُ)جاء تنبيها إلى مخالفة عادة القرآن الكريم في ترتيب حكاية أحوال الأمم حسب ترتيبها في وجودها الزمني[6].

ومن الأمثلة على الإشارة إلى الاستثناءات من اصطلاح القرآن إجمالا:ما أشار إليه عند تفسير قوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[7]حيث نبه إلى أن تركيب :"الذين كفروا" قصد به المشركين في غالب اصطلاح القرآن[8] ، ولعله عنى بهذا التعبير أن اللفظ أعم أعم فيشمل كل من كفر بالله من مشركين وغيرهم ، فقد بين في تفسير قوله–تعالى-:(وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[9] أن قوله:(والذين كفروا) يعم كل من أنكروا الخالق وأنبياءه وجحدوا عهده[10] ، وإن كان للسياق والقرائن وأسباب النزول تعيين للمخاطب ، لكن العبرة بالعموم والمقاصد والغايات.

وفي تفسير قوله-تعالى-:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[11]نبه إلى أن المقصود بالنداء أهل الشرك بقرينة قوله-تعالى-:(فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[12]،وأن هذا غالب اصطلاح القرآن ، منبها إلى أنه يجوز حمل النداء على العموم،ويكون قوله-تعالى-:(اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ)يختص بالمشركين،ولا يدخل فيه أهل الإيمان[13].

(1)التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص247، ج1/ص324، ج18/ص291، ج22/ص285.

(2) سورة الأنعام، الآية: 74

(3) معاني القراءات للأزهري 363/1، 364،المحتسب للابن جنى 223/1.

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج7/ص310.

(5) سورة الذاريات ،الآية: 46

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور ج27/ص15.

(7) سورة البقرة ،الآية:6

(8) التحرير والتنوير لابن عاشور ج245/1

(9) سورة ، البقرة الآية: 39

(10) التحرير والتنوير لابن عاشور ج245/1، 247.

(11) سورة البقرة،الآية: 21

(12) سورة البقرة،الآية: 22

(13)التحرير والتنوير لابن عاشور ج324/1

وفي تفسير قوله-تعالى-:(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)[1]نبه إلى أن اصطلاح القرآن في خطاب الأمر للنبي–صلى الله عليه وسلم-تشريع لأمته ، إلا إلا ما دل الدليل على اختصاصه بالنبي-صلى الله عليه وسلم-مشيرا ومبينا أن الصحابة–رضوان الله عليهم-ما كانوا يسألون عن اختصاص الحكم به-صلى الله عليه وسلم-إلا في مقام الاحتمال اللغوي[2].

ومن الأمثلة على إشارته إلى المطرد في استعمال القرآن الكريم الذي لا استثناء فيه: ما ذكره عند تفسيره لقوله-تعالى-:(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)[3]في بيان معنى العطف بالواو في قوله:(وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ)حيث بين أن للعلماء فيه وجهان: الأول: لئلا يوهم ترك العطف أنها متلازمة مع الصفة التي قبلها، والثاني: أنها واو الثمانية ، منبها إلى كثرة وقوعها في القرآن الكريم، ومشيرا إلى اختلاف العلماء في إثباتها ونفيها ، لكنه أكد أن استعمال واو الثمانية مطرد في القرآن الكريم ، مبينا أن المواضع التي وردت فيها هذه الواو، وليس فيها ثامن في العدد ، فإن الثامن قد يكون فيها في الذكر ، لا في الرتبة[4].

وفي تفسيره لقوله-تعالى-:(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[5]بين أن هذا الاستئناف هو الثاني من الأربعة التي أقيمت أقيمت عليها دلائل انفراده–عزوجل-في التصرف في الخلق ، منبها إلى أن الافتتاح على هذه الصيغة مطرد في القرآن الكريم في المواطن التي غايتها إثبات البعث كقوله –تعالى-:(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[6] [7].

وهو في استقراءه للمطرد باحث مدقق بعيد النظر عميق التنقيب ، فقد نبه في أكثر من موضع إلى ما يتوهم أنه من المطرد وليس منه، وإنما هو من غالب استعمال القرآن الكريم، فعند تفسيره لقوله-تعالى-:(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)[8]نبه إلى إلى أن ضمير الجمع في:(رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) كونه للعقلاء هو غالب لا مطرد ، فقد جاء بضمير الجمع في مواضع أخرى لغير العقلاء، ومنها قوله- تعالى-:(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)[9]في الأصنام وفي قوله–تعالى-:(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)[10][11].

وفي تفسيره لقوله-تعالى-:(إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)[12]أشار إلى أن نافع قرأ بالجمع:(الرياح)،والباقون على الإفراد[13]،منبها إلى أن الإفراد خالف القاعدة في أنها إن كانت جمعا ، ففي الخير، وإن أفردت ، فهي ريح عذاب ، إلا أنه عقب قائلا:" وما

(1) سورة الإسراء ،الآية: 78

(2) التحرير والتنوير لابن عاشور ج15/ص181.

(3) سورة التوبة،الآية: 112

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور ج11/ص43.

(5) سورة الروم،الآية: 40

(6) سورة الروم ،الآية: 11

(7)التحرير والتنوير لابن عاشور ج21/ص107.

(8) سورة يوسف4 ،الآية:

(9) سورة الأعراف،الآية: 198

(10) سورة النمل،الآية: 18

(11)التحرير والتنوير لابن عاشور ج12/ص208.

(12) سورة الشورى ،الآية: 33

(13) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي 249/2.

قيل: إن الرياح للخير، والريح للعذاب في القرآن ، هو غالب لا مطرد، وقد قرئ في آيات الرياح والريح في سياق الخير دون العذاب"[1] [2].

وتظهر دقته في البحث وعمق تأمله عند تفسيره لقوله-تعالى-:(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)[3]حيث نبه إلى أنه كثر في القرآن الكريم ردف ذكر خلق السماوات والأرض بالآيات الدالة على الغاية والحكمة من خلقهما، وهو الابتلاء ثم الحساب فالجزاء، وهذه الغاية والحكمة هي المستفادة من قوله-تعالى-:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[4]مشيرا إلى نظائرها التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض،والتي أردفت بما يدل على الغاية والحكمة من خلقهما كقوله-تعالى-:(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[5]،وقوله-تعالى-:(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[6] ، فكان بعد قوله:(ومابينهما) إشارة إلى المكلفين ، وهو يدل على شرف المقصود،وهو النوع الإنساني الذي هو مناط التكليف ، منبها إلى أن هذا التعاقب والتناسب اطرد أو كاد أن يطرد في القرآن الكريم[7]، ولعل ما جعله يتوقف ولا يقطع باطراده ، ما روي عن ابن مسعود–رضي الله عنه-أنه قال:"بين السماء الدنيا والتي تليها:خمس مائة عام،وبين كل سماء خمس مائة عام"[8] ، قال ابن عثيمين -رحمه الله-في شرح كتاب التوحيد:"هذا الأثر موقوف على ابن مسعود ، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها ، فيكون له حكم الرفع ، لأن ابن مسعود لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات"[9]لكن هذا الأثر الأثر وإن دل على البون بين السماوات ، فلا يدل على وجود مخلوقات فيها.

وهو في استقراءه لمعهود استعمال القرآن الكريم يبين نوع المعهود:فإذا كان في اللفظ أو التركيب ، فإنه يكتفي بإطلاق لفظ:"اصطلاح"،وإذا كان المعهود في الأسلوب ، فيسميه عادة مبينا نوعها،ومن الأمثلة على وقوفه على إطلاق:"اصطلاح"على معهود استعمال القرآن الكريم في الألفاظ ، ما أشار إليه في تفسير قوله-تعالى-:(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[10]حيث نبه إلى أن إطلاق لفظ سورة على أجزاء القرآن الكريم هو اصطلاح جاء به القرآن الكريم،فصار اسم جنس لكل جزء من أجزاءه،وهو مشتق من السور أو الجدار الذي يحيط بالقرية[11].

وعند تفسير قوله-تعالى-:(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)[12]بين أن الظن في اصطلاح القرآن الكريم هو الاعتقاد المخطئ من غير دليل ، مؤيدا هذا التفسير بقوله –تعالى-:(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[13]وقوله-صلى الله عليه وسلم-:"إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث"[14] ، منبها

(1) قرأ ابن كثير على الجمع في خمسة مراضع ونافع في اثني عشر موضعا وأبوعمرو وعاصم وعامر وحمزة والكسائي في موضعين،انظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي 249/2، 250 .

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج25/ص106.

(3) سورة الأنبياء،الآية: 16

(4) سورة المؤمنون،الآية: 115

(5) سورة الحجر،الآية: 85

(6) سورة ص،الآية: 27

(7) التحرير والتنوير لابن عاشور ج17/ص30.

(8) رواه البيهقي في الأسماء والصفات–باب ما جاء في العرش والكرسي–حديث:820.

(9) القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ج 3 / ص379 .

(10) سورة البقرة،الآية: 23

(11) التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص336.

(12) سورة الأنعام ،الآية: 116

(13) سورة يونس ،الآية: 36

(14) رواه مسلم في صحيحه–كتاب البر والصلة والآداب–باب تحريم الظن–حديث:4752

إلى أنه لا يدخل فيه الظن الذي اصطلح عليه الفقهاء في المسائل الفقهية ، فذاك قصد به العلم الراجح في النظر مع احتمال الخطإ احتمالا مرجوحا ، وذلك لتعسر اليقين فيها خلافا لمسائل التوحيد اليقينية[1].

اليقينية[1].

وقد يطلق لفظ الاصطلاح على التراكيب ، فقد أشار إلى أن التركيب: " أهل الكتاب" اصطلح القرآن الكريم على أنهم اليهود والنصارى[2]،وأن تركيب:"المسجد الأقصى"هو بيت المقدس[3]،أما الأساليب التي يطلق عليها لفظ عادة ، فقد تنوعت إلى ضروب متعددة المناحي والأغراض ، وتفصيلها في الأساس الثاني الذي أقام عليه منهجه في تفسيره بمعهود استعمال القرآن الكريم وهو تصنيف هذه العادات.

(2) التصنيف: وابن عاشور-رحمه الله-في عرضه وبيانه لمعهود استعمال القرآن الكريم يصنفه ابتداء إلى معهود في استعمال اللفظ والتركيب ، يطلق عليه لفظ اصطلاح، ومعهود في الأسلوب ، يطلق عليه عادة أو عرفا ، ويطلق لفظ المبتكرات على الاثنين ، فأما إطلاق لفظ اصطلاح ، فكثيرا ما يكتفي بالإشارة إليه إجمالا قائلا:"واصطلاح القرآن"أو:"وفي اصطلاح القرآن"إذا كان مطردا [4]،وقد يصفه بالأغلبية ، فيقول:"وغالب اصطلاح القرآن"أو:"والغالب"أو:"وغلب في اصطلاح القرآن" أو:"والمشهور في اصطلاح القرآن"[5]،ولا يقرنه ببيان نوعه ، لكنه يشير إلى مواضع نظائره إذا كانت كانت معدودة،أو يكتفي ببعضها ، إذا كانت كثرة ، فعند تفسيره لقوله-تعالى-:(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[6]نبه إلى أن اصطلاح القرآن في إطلاق "الظالمين" على عبدة الأصنام ، مشيرا إلى نظيرة الآية في سورة لقمان:(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[7]،وإن كان هناك استثناءات ، فإنه يشير إليها ، مبينا القرينة الدالة على الاستثناء ، فعند تفسيره لقوله-تعالى-:(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(40) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ(41) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ)[8]بين أن غالب اصطلاح القرآن في وصف العبودية المضافة له-سبحانه وتعالى-وتعالى-هي للتنويه والتقريب ، مشيرا إلى نظائر هذه الآية وهي: قوله-تعالى-:(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[9]،وقوله-تعالى-:(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[10]،و قوله-تعالى-:(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)[11] ، منبها إلى أنه-تعالى-لما أراد به أنهم قوم من المشركين جاء على صيغة أخرى ، فقال-تعالى-:(فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً)[12]،ومبينا أن وروده في قوله-تعالى-:(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)[13] ، استثناء بقرينة مقام التوبيخ في قوله:(أَضْلَلْتُمْ) ، لأن صفة الإضلال ليس للتقريب،أما وروده في قوله-تعالى-:(إِنَّ عِبَادِي

(1)التحرير والتنوير لابن عاشور ج8/ص36

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج21/ص6

(3)التحرير والتنوير لابن عاشور ج15/ص14.

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج 1/ص240، 386، ج7/ص277 ،ج16/ص108،ج79/26 .

(5)التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص247،ج2/ص179،ج13/ص93،ج14/ص127،ج17/ص308،187، ج201/19،ج246،25

(6) سورة مريم،الآية: 38

(7) سورة لقمان ،الآية: 13

(8) سورة الصافات.

(9) سورة ص،الآية: 17

(10) سورة ص ،الآية: 45

(11) سورة الزخرف ،الآية: 68

(12) سورة الإسراء،الآية: 5

(13) سورة الفرقان ،الآية: 17

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)[1]فقرينته التغليب هي مناط استثناء الغاوين من اصطلاح التركيب[2].

أما عند إطلاقه للفظ عادة القرآن أو عرفه ، فإنه يقرنه ببيان نوعه قائلا: "وهذه عادة القرآن في كذا "أو:" وعرف القرآن في كذا" ولقد صنفت العادات التي بينها ابن عاشور بعد استقراءها في تفسيره إلى:

(أ) عادة القرآن في التفنن في الأساليب:

وعدها من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وأشار إليها في أكثر من موضع،وتبين من خلال استقراء هذه العادة ، أنها ضمت تحتها عادات تمثلت في التفنن في الأغراض،وتوزيعها،وتذييلها،والانتقال بين الأساليب ، وهي في مجملها تكشف عن جمال النظم القرآني،والإعجاز البياني فيه.

ومما أشار إليها ابن عاشور-رحمه الله-في هذه العادة ، ما ذكره عند تفسير قوله-تعالى-:(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)[3]حيث بين أن هذه الآية استئناف لإبطال عملين غالبين في الجاهلية:شرب الخمر،ولعب الميسر،مشيرا إلى أنها في عداد الأحكام التي جاءت في هذه السورة ، ابتداء من قوله-تعالى-:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى)[4]وامتدادا حتى آخرها،وقد تخللها آداب وزواجر وبشائر ومواعظ وأمثال وقصص ، منبها إلى أنها جاءت على عادة القرآن في عرضه للأغراض المتعددة،وسرده للموضوعات المختلفة،والتنقل بين أساليبها المختلفة ومقاصدها المتنوعة ، تنشيطا للسامعين،وشدًّا لانتباههم ، ملتحمة متلاحمة،ملتفة متآلفة في تناسق بديع ، نحو مقصد جامع،وغاية نبيلة هي هداية البشرية وإصلاح أحوالها[5].

(2) عادة المقابلة والجمع:

وهذه العادة تجمع بين نهج البليغ في البيان،وأسلوب الحكيم في الدعوة ، فبالمقابلة يذهب اللبس ، فتتمايز الأضداد،وتفترق المتناقضات ، فتقوم الحجة،وتزول الغشاوة ، فتستبين السبيل،ومن صورها ردف الاعتبار بالاتساء،وقرن كليهما بصفات أهله،وعاقبة كل منهم ، فينجلي النقع ، فينكشف الضلال،ويتعرى أهله ،ويظهر الحق،ويسمو دعاته،وقد أشار ابن عاشور-رحمه الله-إلى هذه العادة في مواضع كثيرة على تنوعها بين:تعقيب بين البشارة بالنذارة،وإرداف الترهيب بالترغيب،وقرن الشدة باللين،ومقابلة للوعد بالوعيد،وعلى تنوعها ، تنوعت أغراضها.

ففي تفسير قوله-تعالى-:(بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[6]أشار إلى أن التذييل بقوله:(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[7]جاء على عادة القرآن الكريم في تعقيب النذارة بالبشارة[8]،كما بين –رحمه الله-أنه لما حذر-تعالى- من قتل المؤمن في أحوال تعرض فيها شبه في قوله-تعالى-:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ)[9] أردف بفضل الجهاد ترغيبا ، بقوله-تعالى-:(فضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

(1) سورة الحجر،الآية: 42

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج23/ص110، 111.

(3) سورة البقرة ،الآية: 219

(4) سورة البقرة،الآية: 178

(5)التحرير والتنوير لابن عاشور ج2/ص338

(6) سورة البقرة،الآية: 81

(7) سورة البقرة،الآية: 82

(8)التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص581.

(9) سورة النساء،الآية: 94

عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً)[1]على عادة القرآن الكريم في تعقيب النذارة بالبشارة ، منبها إلى أن الغرض منه منه دفع اليأس من رحمة الله –سبحانه وتعالى-[2].

وفي تفسير خاتمة سورة التوبة:(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[3]نبه إلى أنها جاءت على عادة القرآن في ردف الشدة باللين ، فبعد آيات الشدة والغلظة في زجر المنافقين،وتقريعهم،وفضح سرائرهم ، جاءت الخاتمة بهاتين الآيتين ، إرشادا إلى دواء مرض النفاق ، فكان الغرض والمقصد الدعوة إلى التوبة،والدخول في نور الإيمان[4].

ومنه ذكر المأمورات،وأضدادها ، ففي بيان مناسبة قوله-تعالى-:(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ)[5]لما قبلها ، عرض وجهين:الأول:أنها استئناف بياني لخطاب أزواج النبي– صلى الله عليه وسلم-في قوله-تعالى-:(وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً)[6]،بعد قوله:(يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً)[7] ، لأنه يثير في نفوس المسلمات سؤالا:أهن مأمورات مأجورات كنساء النبي–رضي الله عنهن- ، فكان الجواب على عادة القرآن الكريم في تعقيب المأمورات بأضدادها وأمثالها [8].

(3) انصرافه عما لا فائدة في دكره:

وهو أسلوب الإيجاز بالاقتصار على محل الفائدة والحكمة،والاكتفاء بالوقوف عند الإسوة وعلى العبرة ، اختصارا للكلام،وبعدا عن الحشو والتطويل،المفضي إلى التشتيت والبعد والإمعان فيه بالتفصيل ، وإن كان في القرآن الكريم بيان وتفصيل ، فلا يلحقه ما يلحق غيره من البعد والتشتيت،فلا إطناب يشتط عن الغرض أو يقطع التناسق،ولا إيجاز يخل بالمراد،أويغمض المقصد،وقد تنوعت هذه العادة بين:الإجمال في الذكر،والاقتصار على محل الفائدة،وموضع الاعتبار والاتساء في القصص،والترفع عن التصريح بالأسماء والأماكن،والإعراض عن إشهارها ، تحقيرا أو إهانة، فأما الإجمال في الذكر فقد أشار إليه عند تفسير قوله–تعالى-:(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)[9]حيث بين أن الإجمال في قوله:(كلمات) جاء على على عادة القرآن الكريم في إجمال ما ليس محل حاجة ، منبها إلى أنها قد تكون أصول الحنيفية،وقد أجملت هنا ، لأن غرض المقام ليس تفصيل شريعة إبراهيم–عليه السلام- ، وإنما بيان فضله في امتثاله للتكاليف ، مشيرا إلى نظيرتها في قوله-تعالى-:(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[10]ومستدلا بها على إطلاق اللفظ للإجمال[11].

وفي الترفع عن التصريح بالأسماء تحقيرا وإهانة ، أشار عند تفسير قوله–تعالى-:(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)[12] إلى أن أكثر المفسرين أنها نزلت في ابن الزبعري قبل أن يسلم ،

(1) سورة النساء ،الآية: 95

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج5/ص169.

(3) سورة التوبة،الآية: 128

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج11/ص70

(5) سورة الأحزاب،الآية: 35

(6) سورة الأحزاب،الآية: 31

(7) سورة الأحزاب،الآية: 32

(8)التحرير والتنوير لابن عاشور ج22/ص20

(9) سورة البقرة،الآية: 124

(10) سورة المؤمنون،الآية: 100

(11) التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص703.

(12) سورة الزخرف،الآية: 57

عندما سمع قوله-تعالى-:(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)[1] ، فقال للنبي-للنبي-صلى الله عليه وسلم-:"أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم"فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-:"لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم" ، فقال ابن الزبعري:"حججتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي؟وقد عبدته النصارى ، وفي رواية أن بني مليح عبدوا الملائكة ، فقالوا:فإن كان عيسى والملائكة في النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم" ، ففرح بكلامه من حضر من المشركين،ونزل قوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)[2] [3]مبينا أن بناء الفعل "ضُرِب"للمجهول "ضُرِب"للمجهول يتلاءم مع عادة القرآن الكريم في الإعراض عن تسمية أمثاله ، ومنبهاً إلى أن تأخر نزول سورة الأنبياء عن سورة الزخرف يناكد أن سبب نزولها في ابن الزبعري،مشيرا إلى من المفسرين من قال بأنها متقدمة عليها في عد النزول،لكنه استدرك منبها إلى أن روايات ترتيب النزول ليست بمحققة السند ، ومنبها إلى أن الآية قد تنزل أولا ثم تلحق بالسورة [4].

وفي تفسير قوله-تعالى-:(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً)[5]نبه إلى أن الإبهام فيها والإعراض عن تعيينها جاء على عادة القرآن في الترفع عن تعيين ما ليس ذي فائدة ، إذ الغرض والمقصد بيان أنهم أشهدوا الله أنهم إن جاءهم رسول ليكونن أهدى ، وأنهم كذبوا فأخلفوا ما أشهدوا الله عليه[6] .

وأما الإعراض عن الذكر لعدم اقتضاء الحاجة له في المقام ، فقد أشار إليه عند تفسيره لقوله-تعالى-:(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[7]مبينا أنه جاء وصف زمرتي الكفار والمتقين،وسكت عن زمرة أهل المعاصي الذين لم يلحقوا بالمتقين بالتوبة على عادة القرآن الكريم في الإعراض عن وصفهم إلا عند الاقتضاء لبيان الأحكام[8].

وأما الاقتصار على محل العبرة ، فلعله جلي مطرد في توزيع القصص القرآني،والأحداث التي رافقت دعوته-صلى الله عليه وسلم-إذ جاءت في القرآن الكريم موزعة على مواضع متعددة متنوعة الأغراض والمقاصد ، ذلك أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ولاسيرة يسرد القصص والحكايا فيحيط بمشاهدها،ويستغرق قرائنها ، وإنما بيان المقصد و الإشارة إلى الغاية بالوقوف على محل الاتساء وشفير العبرة ، ففي تفسير قوله-تهال-:(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17) وَلَا يَسْتَثْنُون)[9]بين أن معنى:"لا يستثنون"أي:من الثمرة شيئا للمساكين ، أي:ليصرمن الثمر،ولا يتركون منه شيئا ، وهذا المعنى مستفاد مما في الصرم من الخزن والانتفاع بالثمر ، اعتماد

(1) سورة الأنبياء،الآية: 98

(2) سورة الأنبياء،الآية: 101

(3) رواه الطحاوي في مشكل الآثار–باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه،قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ج9/ص452:" وهذا الذي قاله قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛لأن الآية إنما نزلت خطابا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعا وتوبيخا لعابديها؛ولهذا قال:(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) منبها إلى أن هدا لايرد على هذا المسيح والعزير ونحوهما،ممن له عمل صالح،ولم يرض بعبادة من عبده ، ومشيرا إلى ابن جرير الطبري في تفسيره لهده الآية؛ قال أن " ما " لما لا يعقل عند العرب ،انظر:جامع البيان لابن جرير الطبري ج16/ص420..

حديث:819

(4) التحرير والتنوير لابن عاشور ج25/ص237.

(5) سورة فاطر ،الآية: 42

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور ج22/ص332.

(7) سورة الزمر،الآية: 73

(8)التحرير والتنوير لابن عاشور ج25/ص73

(9) سورة القلم.

على معلوم عند السامعين ، منبها إلى أن هذا الإجمال جاء على عادة القرآن الكريم في الإجمال وإيجاز حكاية القصص بالاقتصار على موضع العبرة[1].

(4) عادة انتهاز الفرص:

وهي أسلوب الحكيم في منهج الدعوة والإقناع،وتوظيف مقام الخطاب في ما يصلح له ، بحيث يؤتي ثمرته على أكمل وجه،وقد تنوعت هذه العادة إلى عدة فروع:كانتهازها للإرشاد،وتخليل الأغراض بالمواعظ،وقرن الدلائل العقلية بالعلمية ،وتعقيب القصص والأمثال بالاعتبار،والاتساء والمواعظ.

فأما عادة انتهاز الفرص للإرشاد ، فقد أشار إليها ابن عاشور-رحمه الله- في أكثر من موضع ، منها ما ذكره عند تفسيره لقوله-تعالى-:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2]فقد نبه إلى أن إدماج إحياء الأرض بالماء مع إحياء الموتى في هذه الآية مراده ومقصده الاستدلال على تفرده–سبحانه وتعالى-بالخلق والتدبير وإثبات البعث ، منبها إلى أنها جاءت على عادة القرآن الكريم في انتهاز الفرص للإرشاد إلى الحق[3].

وأما عادة تخليل الأغراض بالمواعظ ، فمن الأمثلة عليها بيانه أن قوله-تعالى-:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[4]جاءت معترضة بين آيات وعيد المحاربين وأحكام جزائهم ، إذ تقدمها قوله-تعالى-:(إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[5]وأردفت بقوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[6]ترغيبا للمؤمنين بعد بعد التحذير من المفاسد ، على عادة القرآن الكريم في تخليل الأغراض بالموعظة ، منبها إلى أن هذا النهج هو ضرب من الخطابة لاصطياد النفوس ، ذلك أنه عقب قتال المحاربين بالأمر بالتقوى للوصول إلى مرضات الله،وقابل قتلا مذموما بقتال يحمد فاعله عاجلا وآجلا[7].

وأما عادة قرن الدلائل العلمية بالعقلية ، فقد أشار إليها في مواضع كثيرة ، ذلك أن ورودها في القرآن الكريم مراده ومقصده نصب الدلائل على وحدانيته–عزوجل-وتفرده بالخلق والتدبير والتصرف،ففي تفسيره لقوله-تعالى-:(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[8]بين ابن عاشور-رحمه الله-أن هذه الآية جاءت عطفا على قوله-تعالى-:(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[9]الدال على سعة علمه،وعظيم قدرته ، على عادة القرآن الكريم في قرن آيات الآفاق بدلائل الوحدانية ، تعليما للمسلمين،ونعيا على المشركين[10].

---

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور 81/29

(2) سورة فصلت ،الآية: 39

(3)التحرير والتنوير لابن عاشور ج24/ص303

(4) سورة المائدة،الآية: 35

(5) سورة المائدة،الآية: 33

(6) سورة المائدة،الآية: 36

(7)التحرير والتنوير لابن عاشور ج2/ص187

(8) سورة الأنعام،الآية: 60

(9) سورة الأنعام،الآية: 59

(10)التحرير والتنوير لابن عاشور ج7/ص275

وأما عادة تعقيب القصص بالمواعظ ، فمنها ما أشار إليه عند تفسيره لقوله-تعالى-:(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)[1]حيث بين أنها استئناف من تمام قصة الحوار الذي دار بين المؤمن ورفاقه مع الكافر في قوله-تعالى-:(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ(50)قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ(54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ(55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ)[2] منبها إلى أن السياق جاء على عادة القرآن الكريم في تعقيب القصص والأمثال بالأهداف والغايات من سردها [3].

(5) عادة ذكر الأمثال والنظائر:

لقد أشار ابن عاشور –رحمه الله-إلى أهمية ذكر الأمثال والنظائر في القرآن الكريم ، ناقلا عن الزمخشري أنها كثرت في كتابه-سبحانه وتعالى-،وفشت حتى في كلامه–صلى الله عليه وسلم- ، منبها إلى أن فائدتها وثمرة عرضها ، كشف خبيات المعاني،ورفع الأستار عن الحقائق ، ذلك أنها تجعل المحقق والموهم في صورة اليقين،والغائب في صورة الشاهد[4]،ومن أمثلة ما نبه إليه من فوائد ومقاصد من عرض الأمثال ، ما ذكره في غرض ومقصد مقابلة المثل الذي ضربه –سبحانه وتعالى- للذين كفروا قوله-تعالى-:(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)[5]بالمثل الذي ضربه للذين آمنوا في قوله-تعالى-:(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[6]حيث بين أن التعقيب بالمقابلة جاء جريا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب،وهذا يزيد المعنى وضوحا،ويزيل الستار عن الغرض ، فيتجلى المقصد،فقد جعل غرض المثل للذين آمنوا الاتساء بحال امرأتين ، لتحصل المقابلة للمثل السابق الذى جعل فيه الاعتبار من حال امرأتين،وهذا من مراعاة النظير في المثلين ، مبينا إلى أن مثل الذين آمنوا جاء على نوعين:الأول في الإخلاص الإيمان،والثاني في شدة التقوى ، فكانت امرأة فرعون مثلا لمتانة المؤمنين،تنويها وتكريما وتشريفا للمؤمنين الذين تبرءوا من ذوي قرابتهم الذين بقوا على الكفر بمكة، وكانت مريم-عليها السلام مثلا للقانتين ، إيماء إلى ما أوصى الله –عزوجل-أمهات المؤمنين-رضي الله عنهن- في قوله-تعالى-:(وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً)[7] [8].

وفي حديثه عن أغراض سورة الإسراء ، نبه إلى أنها افتتحت بمعجزة الإسراء ، توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى-عليه السلام-على عادة القرآن الكريم في ذكر المثل والنظائر ، إشارة إلى أنه–سبحانه وتعالى-أعطى محمدا–صلى الله عليه وسلم-أفضل مما أعطي من قبله[9].

هذا وقد أشار إلى عادات أخرى:كعادة القرن بين العبادات كالقرن بين الصلاة والزكاة ، وإن كانت عادة القرن أعم ، فيدخل فيها:القرن بين الأسماء والطوائف،والآيات الكونية والدلائل[10]،وأشار إلى عادة

(1) سورة الصافات،الآية: 62

(2) سورة الصافات.

(3)التحرير والتنوير لابن عاشور ج23/ص121

(4) الكشاف للزمخشري ج1/ ص190، التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص302

(5) سورة التحريم،الآية: 10

(6) سورة التحريم،الآية: 11

(7) سورة الأحزاب،الآية: 31

(8)التحرير والتنوير لابن عاشور ج28/ص376

(9)المصدر السابق ج15/ص7.

(10)المصدر السابق ج29/ص299.

القرآن في التلطف في تقريع المؤمنين[1] ، وإن كانت تدخل في عادة أعم ، وهي عادة القرآن الكريم في في الخطاب ، فتشمل خطاب الأنبياء-عليهم السلام-،وخطاب أهل الإيمان،والناس كافة.

(3) التوظيف:

معرفة معهود استعمال القرآن الكريم أداة لاغنى للمفسر عنها في الكشف عن معاني كلامه-سبحانه وتعالى-،وطريق لا محيد عنه للوصول إلى فهمه على مراده والوقوف على غاياته ، إن لم يكن أحسن الطرق وأصحها،وهو أساس من أسس المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم لمعرفة أحكامه وحكمه،واستنباط مقاصده وأهدافه ، التي أودعها فيه–سبحانه وتعالى- ، ذلك أنه تفسير للقرآن بالقرآن،ولقد أدرك العلامة ابن عاشور-رحمه الله-أهميته وأثره ، فأولاه عناية بالغة واهتماما شديدا ، لما له من أثر في كشف المعنى،وبيان الغرض،وإدراك الغاية،وفهم المراد،وقد تبين من خلال استقراء وتتبع إشارات وتنبيهات ابن عاشور لمعهود استعمال القرآن الكريم ، أنه يوظفها في خدمة تفسير النصوص الكريمة على ضربين:الأول:توظيف مصطلحات القرآن الكريم في بيان معاني الألفاظ والتراكيب،والثاني:توظيف عادات القرآن في بيان مقاصد الأساليب .

(1) توظيف الاصطلاحات:ويشمل توظيف المفردات والتراكيب ومرجع الضمائر:

أ- **توظيف الألفاظ المفردة:**يستقصي ابن عاشور البحث في بيان معاني الألفاظ ، فيورد اشتقاقها وتصريفها و معانيها المتعددة والمحتملة ، لكنه يرجح ، فيختار منها وفق منهج منضبط ، يعتمد ويرتكز على موافقتها وانسجامها لاصطلاحات القرآن وإطلاقاته ، ففي تفسير قوله-تعالى-:(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2]بين أن لفظ:"سورة" اسم جنس لأجزاء القرآن الكريم،وهو مشتق من السور الذي يحيط بالقرية أو الحضيرة،منبها إلى أنه اصطلاح جاء به القرآن الكريم خاص به ، انفرد به عن غيره من الكتب[3]،كما أشار إلى أن مادة "ف س ق" في اصطلاح القرآن الكريم هي الخروج عما أمر به–سبحانه وتعالى-[4]،وأن الإسراف في اصطلاح القرآن هو الاسترسال في الذنوب[5]،وأن القيام هو الصلاة بالليل[6].

ب- **توظيف التراكيب :**

لقد أشار ابن عاشور إلى اصطلاحات القرآن في تراكيب عدة ، منبها إلى أهميتها في تعيين المعنى،والوقوف على المراد والمقصد ، فقد نبه إلى أن النداء بـــــ(يا أيها الناس) في القرآن الكريم اصطلاح في الدعوة للامتثال للتوحيد،ونبذ الشرك[7]،فيأتي تارة عاما لكل الناس[8]،وتارة أخرى يختص يختص بالمشركين من العرب ، خاصة في القرآن المكي[9]،ومنها أن المراد بـــــ(أهل الكتاب) اليهود والنصارى[10] ، لكنه ليس مطردا ، فلو تتبعنا مواضعه وتأملناها ، لوجدنا أنه قد يختص بأحدهما مقيدا بالسياق أوسبب النزول ، فبالنظر إلى سبب النزول ، فإن قوله-تعالى-:(وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

(1)المصدر السابق ج4/ص130

(2) سورة البقرة ،الآية: 23

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور ج1/ص336

(4)المصدر السابق ج15/ص55

(5)المصدر السابق ج6/ص254

(6)المصدر السابق ج204/19

(7)المصدر السابق ج1/ص224

(8)المصدر السابق ج447/1

(9)المصدر السابق ج20/ص6

(10)المصدر السابق ج21/ص6

آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[1]،هم اليهود،وأن السياق يعين أن قوله-تعالى-:(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً)[2]هم النصارى ، ونظائره كثيرة في القرآن الكريم.

ج- توظيفه في بيان مرجع الضمائر وأسماء الإشارة:

ولأن نهج القرآن الكريم غاية الفصاحة،ومنتهى البلاغة،هدفه إصلاح الدين والدنيا بالدعوة إلى الحق والتوحيد،والإرشاد إلى ما فيه الخير والإصلاح في جميع جوانب الحياة ، فتعددت فيه الأغراض والغايات والمقاصد،وشاعت فيه الأمثال،وتوزع في،القصص،وتنوعت الأحكام،وكثرت الدلائل ، ولأن البيان والاستطراد فيه والتفصيل ينتقل بالسامع إلى مقام غير المقام ، فيعزله عن الغرض والغاية ، كان سبيل الإيجاز،وحسن التخلص،والاقتصار على محل الفائدة من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم،ومن صور هذا الإيجاز:الاكتفاء بالإسناد،والإضافة إلى الضمائر،والتعيين،والوصف بأسماء الإشارة،وقد وظف ابن عاشور بحثه واستقراءه لاصطلاحات القرآن الكريم في بيان عود الضمائر،وتعيين مقصود أسماء الإشارة للكشف عن تفصيل وبيان معاني النصوص ومناسباتها ، ففي تفسير قوله-تعالى-:(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)[3]نبه إلى أن ضمير:"أكثرهم" عائد إلى معلوم من المقام وهم وهم المشركون ، وهي عادة القرآن في غير موضع[4]،وفي تفسير قوله-تعالى-:(وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ)[5]بين ابن عاشور-رحمه الله-أن الإشارة بـــ(هؤلاء) إلى مشركي مكة،وهي عادة عادة القرآن[6]،وفي تفسير قوله-تعالى-:(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)[7]قال:"فإني استقريت من اصطلاح القرآن أنه يشير بهؤلاء إلى العرب"[8].

(2)توظيف العادات:

كثيرا ما كان يلجأ ابن عاشور عند احتمال مقاصد النصوص الكريمة،أو خفاء مرادها ، إلى توظيف العادات في ترجيح وتعيين أحد المحتملات،أو الكشف عنه ، حتى جعلها مرجحا في كثير من اختياراته،ودليلا في أغلب استنباطاته في بيان غايات النصوص الكريمة وأهدافها،وكشف التناسب بين الآيات والسياقات ذات الأغراض المتعددة،وإظهار تلاحمها،وبديع انسجامها،والتفنن في تنوعها ، فكانت أساسا في الوصول إلى مقاصدها وإدراك غاياتها،وفيصلا في ميز الدخيل عن معانيها ،ورد البعيد عن مقاصدها.

أ-توظيف العادات في بيان المقاصد:

التلازم بين كثير من النصوص الكريمة مع المقاصد جلي في القرآن الكريم ، ذلك أن المقاصد تدور وتلتف حولها النصوص الشرعية لتؤكدها ، وهذا التآلف والتلازم يتكرر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، مما جعله عادة من عادات القرآن،والإحاطة بهذه المقاصد،ودراستها وتحليلها،ومعرفة وتعيين متطلباتها ولوازمها،ووسائل تحصيلها،وأدواتها،ونتائجها،وآثارها ، طريق إلى كشف معاني السياقات والنصوص الكريمة التي اشتملت عليها،أو أشارت إليها،وذلك بتصنيفها،وتمييز ما يرتبط منها

(1) سورة آل عمران،الآية: 72

(2) سورة النساء ،الآية: 171

(3) سورة فصلت،الآية: 4

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج24/ص293

(5) سورة الزخرف،الآية: 88

(6)التحرير والتنوير لابن عاشور ج25/ص273

(7) سورة الزخرف،الآية: 29

(8)التحرير والتنوير لابن عاشور ج171/9

بالمقدمات واللوازم،وما يتعلق بالأدوات والوسائل،وما يشير إلى النتائج والآثار ، فينكشف سر ترتيب الآيات وتناسب السياقات،وتظهر معانيها،ويتضح تآلفها وتكاملها ، فتدرك مقاصدها والمراد،ولقد أدرك ابن عاشور-رحمه الله-هذا التلازم والارتباط ، فوظفه في خدمة تفسير النصوص والسياقات التي خفي معناها،وأبهم مرادها،ففي تفسير قوله-تعالى-:(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)[1]بين-رحمه الله- أن مقصد الافتتاح بهذه الآية،ومثيلاتها مما جاء فيها التنبيه إلى بدء الخلق والإنعام بالرزق ، هو إثبات البعث ، منبها إلى أن هذا الأسلوب مطرد في القرآن الكريم[2].

وفي تفسير قوله-تعالى-:(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[3]بين أن ذكر هذه الخصلة الخصلة من خصال المصطفى–صلى الله عليه وسلم-مع الخصلتين الأخريين:التبليغ والرحمة،جاء على عادة القرآن في الإرشاد إلى مقصد من مقاصده العامة،وهي الإرشاد إلى الخير والترغيب فيه،والترهيب مما يحيد عنه،فقد رغبهم في الإيمان،وأعقبه بالترهيب من إيذاءه-صلى الله عليه وسلم-[4].

ب-توظيف العادات في بيان المناسبة:

لعل مما يميز تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور–رحمه الله-هو اهتمامه الشديد بالكشف عن سياق تتابع الآيات الكريمة وأغراضها المتنوعة،وعنايته البالغة ببيان ارتباطها،وتآزرها في المقاصد والأهداف ، وإذا خفيت هذه المناسبة ، فإنه يجتهد بما توفر عنده من أدوات،وظهر له من قرائن ، في الكشف عن اتساق تتابعها،وبيان محور تآزرها،وهذا سبيل إلى تحقيق وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، ألا وهو كشف سر جمال النظم القرآني،ولأن هذا الوجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مطرد في جميعه،ملازم لألفاظه وتراكيبه وأساليبه ، كان في تكرره عادة اعتمدها ابن عاشور– رحمه الله-في الكشف عن معاني كثير من النصوص الكريمة،وفهم مرادها ، ففي تفسير قوله-تعالى-:(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً)[5]بين أن هذه الآية رتبت بعد آيات الجهاد والهجرة التي سبقتها على هذا هذا النسق،وأن اتساقها على هذا الترتيب التوقيفي جاء على عادة القرآن في التفنن في عرض الأغراض،والانتقال من تشريع إلى تشريع بجامع يربط بينها ومحور تلتف حوله وهو هنا السفر[6].

وفي تفسير قوله-تعالى-:(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[7]أشار إلى أنه أشكل على المفسرين نظم هذه الآية مع الآيات التي سبقتها وهي قوله-تعالى-:(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[8]،وقوله-تعالى-:(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) [9]،وقوله-تعالى-:(وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[10]حتى حمل بعضهم على تفكيك الضمائر ، فجعل الضمير في:"ليعذبهم،فيهم"

(1) سورة النحل،الآية: 70

(2)التحرير والتنوير لابن عاشور ج21/ص107.

(3) سورة التوبة،الآية: 61

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج10/ص244

(5) سورة النساء ،الآية: 101

(6)التحرير والتنوير لابن عاشور ج5/ص182

(7) سورة الأنفال،الآية: 33

(8) سورة الأنفال،الآية: 30

(9)سورة الأنفال،الآية: 31

(10) سورة الأنفال،الآية: 32

للمشركين،وضمير:"وهم يستغرون" للمسلمين ، منبها إلى أن هذه الآية جاءت معترضة ترغيبا بعد الترهيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد ، فبعد تهديد المشركين ذكرهم بالتوبة من الشرك وطلب المغفرة ، وبهذا تظهر المناسبة،وتتحد الضمائر في مرجعها[1].

وفي بيان التناسب بين قوله-تعالى-:(فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)[2]وما قبلها من الآيات التي أمرت بجهاد الكفار والمنافقين في قوله-تعالى-:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[3]بين أن التفريع بدعوتهم إلى التوبة بعد الأمر بجهادهم جاء على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد[4].

ج-توظيف العادات في الترجيح والرد:

ولأن المتكلم أعلم من غيره بمعاني كلامه،وأدرى بغاياته ومقاصده ، كان في استقراء أسلوبه،وتتبع عاداته في النظائر والمتشابهات،أثر في الترجيح بين احتمالات المعاني،والانتخاب منها بما يوافق السياق ، به يتم إزاحة ستار الاحتمال،فيتعين المراد ،وبه يستجلى وجه الغرض ، فينكشف الخفي وتبرز الغاية،ولقد اعتمد ابن عاشور-رحمه الله-عادات القرآن الكريم مرجحا بين احتمالات المعنى،وأقوال المفسرين ، فانتخب ما يوائمها،ورد البعيد عن مقاصدها والدخيل عليها،واستبعد الغريب عن غاياتها،ففي تفسير قوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)[5]بين أن التعريف بـ(الـ) في الاسم الموصول إما:للعهد،أوللجنس المفيد للاستغراق،فعلى أنه للعهد ، يكون المراد به قوم معهودون كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤساء الشرك،وعلى أنه للجنس ، يكون المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة(لايؤمنون) وعلى هذا الوجه يكون:إما عاما مخصوصا،أو عموما أريد به الخصوص لمن مات على الكفر منهم ، مشيرا إلى أن من المفسرين من جعله فيمن قضي عليه بالكفر،ونظيره قوله-تعالى-:(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ)[6]منبها إلى أنه بعيد عن اللفظ،ومنهم من جعلها في حيي بن أخطب وأبي رافع من رؤساء اليهود ، حملهم على ذلك أن السورة مدنية،وليس في المدينة من الكافرين سوى اليهود والمنافقين ، إلا أنه استبعد هذا التأويل لبعده عن عادة القرآن الكريم ومعارضته للسياق ، مؤكدا على أن المعنى عند الجميع فريق خاص من الكفار لا يرجى إيمانهم[7].

(1)التحرير والتنوير لابن عاشور ج344/9

(2) سورة التوبة ،الآية: 74

(3) سورة التوبة،الآية: 73

(4)التحرير والتنوير لابن عاشور ج10/ص271.

(5) سورة البقرة ،الآية: 6

(6) سورة يونس ،الآية: 96

(7)التحرير والتنوير لابن عاشور ج248/1.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات،الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه،وبعد فهذه نتائج توصلت إليها في هذا البحث،وتوصيات أحببت أن أذكر بها المشتغلين بتدبر القرآن الكريم:

أولا: النتائج :

(1) اعتناء علماء المسلمين بمعهود استعمال القرآن الكريم قديما وحديثا ، على اختلاف عباراتهم في المصطلح ، لما له من أثر كبير وأهمية بالغة في كشف المعنى وتعيين المراد.

(2) معرفة معهود استعمال القرآن الكريم:طريق إلى كشف المعنى وفهم المراد،ومرجح في تعيين المعنى والغاية عند الاحتمال،حافظ من الزلل عن المنهج القويم في تفسير القرآن الكريم،وعاصم من التقول على الله ، ذلك أنه تفسير للقرآن بالقرآن.

(3) معهود استعمال القرآن الكريم يتنوع إلى:(أ) معهود في اصطلاح اللفظ والتركيب،(ب)ومعهود في عادة الأسلوب.

(4) معهود استعمال القرآن الكريم يعرف من جهة تكرره في القرآن الكريم ، لا من جهة اللغة العربية ،وطريق استخراجه الاستقراء الكامل للقرآن الكريم،وتدبره.

ثانيا: التوصيات:

(1) الاعتناء بهذا العلم في تدريس تفسير القرآن الكريم وعلومه.

(2) تأصيل منهج استنباطه وتوظيفه والحكم عليه ، بعقد الندوات والمؤتمرات العلمية حوله.

قائمة أهم المصادر والمراجع في البحث:

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي،تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،ط3، 1404هـ،مكتبة دار التراث،القاهرة –مصر- 199/1، 200.

(2) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي،تحقيق:مركز الدراسات القرآنية،ط1،وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والإرشاد،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،المدينة المنورة– المملكة العربية السعودية- 189/1

(3) التحرير والتنوير لابن عاشور،ط،1984م، الدار التونسية للنشر ،تونس، 32/1.

(4) عرف القرآن،والمعهود من معانيه واستعمالاته،وأثره في الترجيح الدلالي(دراسة تأصيلية تطبيقية) ، لأحمد فالح محمود الخالدي،رسالة لاستكمال متطلبات نيل درجة الدكتوراه في تفسير القرآن وعلومه بجامعة اليرموك(2008/2007م)،إربد-الأردن-.

(5) عادات القرآن الأسلوبية:دراسة تطبيقية،لراشد بن حمود الثنيان،ط1،1432هـ-2011م،رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه، بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود،الرياض-المملكة العربية السعودية-.